(٣٧) الاستثناء في الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد شرعنا في الدرس الماضي في الحديث عن هذه المسألة الشريفة الكبيرة: وهي مسألة الإيمان، وقلنا: إن الحديث عن الإيمان **في هذا الباب حديث لا عن الإيمان باعتبار المؤْمَن به، وإنما عن، حديث عن الإيمان حقيقته،** وبينا أن المرجئة ثلاث طبقات: أشدهم إرجاء هم الجهمية الذين جعلوا الإيمان مجرد المعرفة، ثم يليهم الكرَّامية الذين جعلوا الإيمان هو قول اللسان، ثم مرجئة الفقهاء أصحاب أبي حنيفة –رحمهم الله– الذين جعلوا الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان، وجعلوا الأعمال ثمرة ولازماً، جعلوها ثمرة ولازماً، وبيّنا الفرق بينهم وبين غلاة المرجئة: من أن غلاة المرجئة يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. بينما مرجئة الفقهاء يقولون: بل يضر مع الإيمان ذنب. مع اتفاقهم بأن العمل ليس داخلاً في مسمى الإيمان، فقد اتفقوا على هذه القضية: وهي أن العمل ليس داخلاً في مسمى الإيمان، إلا أن غلاة المرجئة نفوا أثر الأعمال على مرتكب الكبيرة، وقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وأما مرجئة الفقهاء فقد أبوا ذلك وقالوا: المطيع محمود في الدنيا مثاب في الآخرة، والعاصي مذموم في الدنيا مستحق للعقوبة في الآخرة، وكل العباد مطالبون بامتثال ما أمر الله به: إما على سبيل الوجوب، وإما على سبيل الاستحباب، ومطالبون بالكف عما نهاهم الله تعالى عنه: إما على سبيل التحريم، وإما على سبيل الكراهة. ويقولون بالتعزيرات الشرعية وبإقامة الحدود، ثم إنهم يقولون أيضاً: أن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن حد الإيمان. ولا يصفونه بالكفر، بل يوافقون أهل السنة والجماعة على ذلك، وبذلك صاروا متفقين في هذه القضايا مع أهل السنة والجماعة مما ضيق هوة الخلاف بين الفريقين، وإنما جرى الخلاف في بعض المسائل، أشرنا إليها، منها:

أولاً: ما يتعلق بالقضية الأصلية: وهي حقيقة الإيمان، فجعلوها مقتصرة فقط على قول اللسان، على قول اللسان واعتقاد الجنان، كما قال الطحاوي –رحمه الله–، بل إن من الماتُريدية، ويروى هذا عن أبي منصور الماتُريدي أنه لم يجعل قول اللسان شرطاً، وإنما هو فقط لإجراء الأحكام الظاهرة، وإلا لم يدخله في الأصل وفي حقيقة الإيمان. وبهذا يتقارب هذا القول مع قول المرجئة الغلاة.

ثم –أيضاً– إنهم فارقوا أهل السنة في مسألة كبيرة: وهي زيادة الإيمان ونقصانه.

فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الإيمان يزيد وينقص، وقد ذكر الله تعالى في كتابه ستة أدلة تدل على زيادة الإيمان، ومن لازم ذلك نقصانه، فهذه الأدلة على النسق: ذكر الله أولها في سورة آل عمران: **{الَّذِينَ قَالَ**

لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: ١٧٣] ، ثم في سورة الأنفال **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢]** ، ثم قبل ذلك، لا، بل بعده، في سورة براءة موضعان: يقول الله عز وجل: **{ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤]** ، هذه أربعة، ثم في سورة الفتح: يقول الله تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ } [الفتح: ٤]** ، ثم في سورة المزمل، بل في سورة المدثر: يقول الله تعالى: **{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا } [المدثر: ٣١]** ، فهذه ستة مواضع صريحة في إثبات لفظ الزيادة.

والنقصان من لوازم، يعني بين الزيادة والنقصان تلازم عقلي، فكل أمر قابل للزيادة فهو قابل للنقصان، فهو وإن لم يُنص عليه في القرآن فإن هذا تحصيل حاصل، فإن الشيء قبل أن يزيد كان أنقص منه بعد الزيادة، فبالتالي الزيادة والنقصان بينهما تلازم عقلي، على أننا نجد دليلاً من السنة على لفظ النقصان، في قول النبي ﷺ: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)، ونقصان الدين من نقصان الإيمان، إذ الإيمان والدين بمعنى، فهذا لفظ تُسعف فيه السنة، عُبر فيه بالنقصان، وأما في كلام الصحابة والتابعين فكثير –بحمد الله– التعبير بالأمرين: الزيادة والنقصان.

وأهل السنة والجماعة مجمعون على هذه القضية: على أن الإيمان يزيد وينقص، حتى قال الإمام البخاري –رحمه الله–: أدركت ألفاً من أهل العلم في الأقطار –أو: في الأمصار– كلهم يقول: الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص. في القضية إجماع، إلا **أنه قد حُفظ عن الإمام مالك –رحمه الله– أنه قال: أقول: يزيد، ولا أقول: ينقص. أقول: يزيد، ولا أقول: ينقص. ويُوجه كلام مالك –والله أعلم– على أحد توجيهين:**

التوجيه الأول: أنه لاحظ أو راعى لفظ القرآن فقال: أُعبر بما عبر به القرآن. فحيث اقتصر القرآن على لفظ الزيادة اكتفى به، فيكون هذا من باب التحرز والتحري ولزوم التعبير القرآني الذي بلغه، فبدا له أن يقول ذلك.

والتوجيه الثاني –ولعله أسد ومال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في الإيمان الأوسط وغيره–: أن مالكاً خشي أن يقول: ينقص فيستغل ذلك الخوارج المكفرين، فإنه إذا قالوا: نقص إيمانه. فإذا نقص فمعنى ذلك: الإيمان شيء واحد، إما أن يوجد كله أو يُعدم كله، فخشي أن يُجعل من ذلك مدخلاً، أن يُجعل ذلك مدخلاً لمقالة الخوارج وأهل التكفير، وبقيت، وعن الإمام مالك رواية توافق الجماعة.

ولاحظوا في هذا المقام –مسألة زيادة الإيمان ونقصانه- **نجد عجباً**، نجد أن المرجئة والوعيدية على حد سواء في هذه المقالة: كلهم يقول –مع أنهما طرفا نقيض- كلهم يقول: الإيمان شيء واحد، لا يزيد ولا ينقص. فعندهم حقيقة الإيمان حقيقة واحدة، إما أن توجد كلها أو تُعدم كلها، لكن المرجئة تساهلوا في إبقائها وإثباتها، إذ الإيمان عندهم قول القلب، وربما أضافوا إليه قول اللسان، وأما الوعيدية فقالوا: شيء واحد. لكنهم تشددوا في ذهابه، أولئك تساهلوا في بقائه، مقابليهم تشددوا في ذهابه، فقالوا: إذا انثلم شيء من الإيمان ذهب كله.

وأهل السنة والجماعة لما كانوا يرون أن جميع متعلقات الإيمان تزيد وتنقص رأوا أنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وحينما يقولون: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. ليس معنى ذلك أن فقط الطاعة والمعصية هما السببان الوحيدان لزيادته ونقصانه، تأملوا معي، ليس قول أهل السنة والجماعة: إن الإيمان يزيد وينقص فقط مقتصر على أنهم أدخلوا العمل في مسمى الإيمان، لا، عند أهل السنة والجماعة حتى التصديقات تتفاوت، لأن حجة المرجئة يقولون: التصديق شيء واحد، إذا علمت إنه ١+١= ٢ انتهى الأمر، ما فيه قابلية للزيادة والنقصان.

أهل السنة والجماعة يقولون: بل حتى التصديقات يقع بينها تفاوت، فخبر الواحد ليس كخبر الاثنين، وحديث الآحاد ليس كالحديث المتواتر، أليس كذلك؟ ذاك يفيد العلم النظري، وهذا يفيد العلم الضروري، ليس الخبر كالمعاينة: شيء يُقال لك، ليس كشيء تراه بعينك. فحتى التصديقات التي محلها القلب تتفاوت، ناهيك عن أعمال القلوب، فإن أعمال القلوب مضامير واسعة وساح فساح يتفاوت فيها أهل الإيمان تفاوتاً عظيماً، فإن نور لا إله إلا الله يتفاوت في القلوب تفاوتاً عظيماً، فالناس ليسوا سواء في المحبة والخوف والرجاء والتوكل، بينهم مثل ما بين المشرق والمغرب ومثل ما بين السماء والأرض في هذه الأمور، وكذلك أقوال اللسان، فإن قول اللسان أيضاً يتفاوت: أين الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم بالنسبة للذين لا يذكرون الله إلا قليلاً؟ شتان، وكذلك أعمال الجوارح: أين الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذي ينقر صلاته كنقر الغراب؟ شتان.

إذن أهل السنة والجماعة دليلهم في إثبات زيادة الإيمان ونقصانه: الشرع، والعقل والنظر الصحيح، الحس، الواقع، دلائل متكاثرة على زيادة الإيمان ونقصانه، والآخرون يعني عموا، ولما عموا عن هذه القضية، وسبب ذلك هو خطؤهم الأصلي في تعريف حقيقة الإيمان وأنه فقط مجرد قول القلب أو اعتقاد القلب أو معرفة القلب، نشأ عنها ما نشأ، **ومما نشأ عنها أيضاً مسألة الاستثناء في الإيمان**: وهو هل يقول المرء: أنا مؤمن –إن شاء الله-؟ أم لا؟ فأما أهل السنة والجماعة والمأثور عن الصحابة كابن مسعود رضي الله عنه وغيره: أنهم قالوا بالاستثناء في الإيمان، يعني أن يقول الإنسان: أنا مؤمن –إن شاء الله-. وتعليلهم لهذا مبني على أن عدم الاستثناء يحصل به التزكية، لأن الإيمان عند أهل السنة والجماعة يتفاوت: فمنه إيمان كامل، ومنه إيمان واجب، ومنه أصل الإيمان، فلو

قال إنسان: أنا مؤمن. ولم يستثن كأنما قال: أنا من أهل الجنة. وبهذا قال ابن مسعود ﷺ للركب الذين لقوه، قال: من القوم؟ قالوا: نحن المؤمنون. قال: قولوا: نحن أهل الجنة!. يعني ذلك أنكم إذا قلتم وقطعتم لأنفسكم بأنكم المؤمنون فكأنما تقولون: نحن أهل الجنة. إذ أن ذلك، إذ أن المؤمنين هم أهل الجنة، فكان الصحابة والتابعون يرون الاستثناء في الإيمان خوفاً من التزكية، وقد قال الله عز وجل: **{فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ}[النجم: ٣٢]**.

وهناك تعليل آخر: وهو أن العبد لا يعلم بما يُختم له. بما يُختم له، فهم ربما قالوا: إن شاء الله. بناء على رجائهم أن الله تعالى يديم عليهم وصف الإيمان، وهذا التعليل الذي هو الخوف -مثلاً- من سوء الخاتمة أو نحو ذلك ليس هو التعليل الذي عللت به الكُلّابية وتبعهم عليه الأشاعرة في مسألة الاستثناء، عللوها بمسألة الموافاة، الكُلّابية وتبعهم الأشعرية يقولون بالاستثناء في الإيمان، لكن مأخذهم ليس مأخذ أهل السنة والجماعة، عللوا ذلك بمسألة الموافاة، قالوا: لأنه لا يدري بما يوافي. ما هو أنه يخشى من سوء الخاتمة، لا، قالوا: لأنه إذا كان مكتوباً عند الله من أهل النار، أو: مكتوباً من أهل النار فإنه يجب أن يقول إذا قيل: هل أنت مؤمن؟ يجب أن يقول: أنا مؤمن -إن شاء الله-. لا باعتبار الخاتمة، وإنما باعتبار ما قد كتبه الله له في الأزل، وهذا تعليل لم يقل به أحد من أهل السنة والجماعة، وإنما أمر انفرد به هؤلاء المتكلمون من الكُلّابية والأشاعرة.

أما المرجئة على اختلاف طبقاتهم فإنهم قالوا: لا يجوز الاستثناء في الإيمان، الاستثناء في الإيمان شك، والإيمان جزم، لابد فيه من القطع. فعندهم أن الإنسان إذا قال: أنا مؤمن -إن شاء الله-. فهو متردد، كأنه يقول: أنا مؤمن -إن شاء الله-. يمكن، ويمكن لا، فهذا فيه تردد، لأن الإيمان عندهم شيء واحد كما مثلنا سابقاً، كالبطاقة الوطنية، الهُوية الوطنية، إما أن تكون تمتلكها أو لا تكون، فلو قيل لك مثلاً: هل أنت سعودي؟ ما تقول: أنا سعودي -إن شاء الله-. ما تقول: إن شاء الله. لأنك إما أن تكون كذلك أو لا تكون، فهم يقولون: هذا التردد، أو: هذا الاستثناء تردد، ويجب القطع في مسائل الإيمان. بناء على أصلهم الذي أشرنا إليه، فهذا أيضاً من يعني سبب الاختلاف، أو نقاط الاختلاف بين أهل السنة والجماعة والمرجئة.

قال الشيخ بعد ذلك، قال: وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق: يعني نحن نود أن الشيخ قال: وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله إيمان. لأن المقام هنا مقام الحديث عن الإيمان، فجميع الخصال التي أمر بها النبي ﷺ من التصديقات والأعمال هي إيمان، فاللفظ الذي نتمناه أن يُقال في هذا المقام: أن يُقال: كله إيمان. فإن كان خبراً فالإيمان فالإيمان بتصديقه، وإن كان طلباً فالإيمان بقوله إن كان قولاً، وبفعله إن كان فعلاً، وإن كان نهياً فبالكف عنه إن كان قولاً، والكف عنه إن كان فعلاً، هكذا، فالإيمان ينتظم جميع أبواب الدين، ولهذا: الإيمان عند الإطلاق يعني الدين، وهذا يمكن ينقلنا إلى: ما الفرق بين الإيمان

والإسلام؟ ما هو الفرق بين الإيمان والإسلام؟ **قيل في ذلك أقوال متعددة: قيل: أنهما مترادفان**. ولكن هذا لا يستقيم على الإطلاق، لأن الله ميز بينهما، قد ميز بينهما، **وقيل: الإسلام هو الكلمة**. لكن دعونا نذكر القول المحرر في هذا: **وهو أن يُقال: أنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا**. إذا اجتمعا في نص واحد افترق معناهما، فصار الإسلام يعني الأعمال الظاهرة، والإيمان يعني العقائد الباطنة، وإذا افترقا اجتمعا: يعني إذا افترقا بأن جاء كل منهما في نص مستقل فكل منهما يدل على الآخر، يدل على الدين كله، نبين ذلك بالمثال، يقول الله سبحانه وتعالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}[الأنفال:٢-٣]** الإيمان هنا أليس يدل على الدين كله؟ يدل على الدين كله، الشرائع الظاهرة كالصلاة والزكاة والحج والصيام، وعلى العقائد الباطنة كوجل القلوب والتوكل على الله.

قال الله تعالى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ}[الحجرات:١٥]** أليس الجهاد عمل؟ إذن هم آمنوا، جمعوا بين الإيمان وبين الجهاد، فصار الإيمان في هذه الآية يدل على الدين كله، تماماً هو في مثل معنى قول الله تعالى عن الدين: **{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}[البينة: ١-٥]** إذن الدين يشمل القول والعمل، فالإيمان عند الإطلاق شمل القول والعمل، وكذلك الإسلام عند الإطلاق يشمل القول والعمل، وفي حديث وفد عبد القيس -وهو من أقوى الأدلة على ما قررناه آنفاً- قال لهم النبي ﷺ: (آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ أن تشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتؤدوا الخمس من المغنم)، فذكر، فسر لهم النبي ﷺ الإيمان بماذا؟ بأركان الإسلام، مما يدل على أنهما عند الافتراق كل واحد يشمل الآخر ويدل عليه، كلاهما يعني الدين كله.

أما عند الاقتران: فإن الإيمان يعني العقائد الباطنة، والإسلام يعني الشرائع الظاهرة، وأوضح مثال لذلك حديث جبريل، ففي حديث جبريل، قال جبريل للنبي ﷺ، قال: أخبرني عن الإسلام؟ قال: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً)، بماذا فسر الإسلام؟ بالشرائع الظاهرة، قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)، ففسر الإيمان بالأعمال الباطنة.

مثال آخر: قال الله تعالى: **{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}[الحجرات: ١٤]** هؤلاء أعراب من بني أسد امتنوا على النبي ﷺ وقالوا: كذبك الناس وآمنا بك، قاتلك الناس وكففنا عنك، وكذا. يمتنون، وزعموا أنهم مؤمنون، فالله تعالى لم يقرهم على هذه الدعوى العريضة أنهم مؤمنون، وبيّن أن الإيمان الذي ناوله هو الحد الأدنى، وأنهم بعد بعد بعد لم يبلغوا حقيقة الإيمان، ولهذا قال: **{وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}[الحجرات: ١٤]**، هل معنى ذلك أنهم كفار؟ لا، ليسوا كفاراً ولا منافقين كما ظن ذلك وتوهمه بعض المفسرين، **{قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا}** ليس المقصود: **{لَّمْ تُؤْمِنُوا}** أنكم كفرة، لا، نفى عنهم الإيمان الكامل، **{وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}** قد صدق عليكم وصف الإسلام لقبولكم المبدئي وإظهاركم الاستسلام لله عز وجل ونطقكم بالشهادتين والتزامكم الظاهري، **{وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}** يعني بعد بشاشة الإيمان لم تباشر قلوبكم فتجدوا حلاوته ولذته ونعيمه وأنسه وبهجته، فهذا يدل على التفريق بين الإيمان والإسلام، وأن من قال: هما بمعنى واحد بالإطلاق. فقد أخطأ.

موضع ثالث: قال الله تعالى في قصة لوط: **{فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ}[الذاريات: ٣٥-٣٦]** ظن بعض الناس أن هذا دليل على أن الإيمان والإسلام بمعنى واحد، لأن المعنيين في ختام الآيتين واحد، لكن الواقع: عند التأمل يجد الإنسان الفرق، **{فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}**من المخرَجون؟ لوط وابنته، وهؤلاء مؤمنون حقاً؟ ولّا لا؟ مؤمنون حقاً، **{الْمُؤْمِنِينَ}** من المخرَجون؟ لوط وابنته، وهؤلاء مؤمنون حقاً؟ ولّا لا؟ مؤمنون حقاً، **{فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ}** ماذا يضم ذلك البيت؟ يضم لوطاً وابنتيه وزوجته، وزوجته ليست مؤمنة، لكن لما كانت القوامة للوط ﷺ وهو رب البيت صارت السمة والوصف لذلك البيت أنه بيت إسلام، باعتبار القيم عليه ومن له السلطان عليه، فوُصف بالإسلام، هكذا، ولذلك يقول الفقهاء عن الدار: أن البلاد التي يفتحها أهل الإسلام وتخضع لسيطرة المسلمين يقولون عنها ماذا؟ دار إسلام، دار إسلام، حتى وإن كان غالب أهلها كفار، حتى وإن كان غالب أهلها كفار، لأن العبرة بالسلطان.

إذن هذا هو الفرق بين الإيمان والإسلام.

طيب، قال الشيخ –رحمه الله–: والإيمان واحد: هذا مما ننازعه فيه، فالإيمان ليس شيئاً واحداً، بل الإيمان يتفاضل.

قال: والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء: والواقع أن في هذه الجملة ما يمكن أن يُدخل به على الشيخ –رحمه الله–، يعني وعلى أصحابه من مرجئة الفقهاء، لأنهم حينما قالوا: وأهله في أصله: إذن ما الذي يقابل الأصل؟ الفرع، فمعنى هذا أن هناك تفاوت في الفروع.

قال: وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأَولى: الشيخ –رحمه الله– يجعل هذه الخصال خارج الإيمان، يجعلها من ثمراته ولوازمه وتوابعه، فيجعل التفاضل ليس في الإيمان بأن المؤمنين يتفاضلون، أما أهل السنة والجماعة فيقولون: أهل الإيمان يتفاضلون، والدليل على ذلك: قول الله تعالى: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}[فاطر:٣٢]** إذن الذي سيأتي ذكرهم كله... **{فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ}**، ولهذا: تأملوا –يا رعاكم الله– كيف مراتب الإيمان؟ تصوروا الإيمان عبارة عن ثلاث دوائر يحيط بعضها ببعض، فالذي، أرجو الانتباه والتصور، التصور تقريبي هذا، فالذي حقق أصل الإيمان، بمعنى أنه شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والتزم بمدلول الشهادتين نقول عنه: هو مؤمن عنده أصل الإيمان. ونسكنه الدائرة الداخلية، طيب، فإن هو فعل الواجبات وترك المحرمات فقط، فعل الواجبات وترك المحرمات كالرجل الذي قال للنبي ﷺ: يا رسول الله: أرأيت إن صليت المكتوبات وصمت رمضان وكذا... أأدخل الجنة؟ قال: (نعم)، فولى الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. فقال النبي ﷺ: (أفلح وأبيه إن صدق)، الذي أتى بأصل الإيمان وضم إليه فعل الواجبات وترك المحرمات فقط، يعني قد أحاط أو سكن في الدائرة الثانية، التي هي دائرة الإيمان الواجب، طيب، الذي أتى بأصل الإيمان وفعل الواجبات والمستحبات والمروءات وترك المحرمات والمكروهات وخوارم المروءات هذا قد سكن الدائرة الكبرى المحيطة، وهي دائرة الإيمان الكامل، فصار الإيمان يمكن أن نجعله أصل الإيمان والإيمان الواجب والإيمان الكامل.

فأصل الإيمان: هو الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، بأن يقول الإنسان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. خلاص، هذا الإنسان قد أتى بأصل الإيمان، أعلن التزامه وتصديقه وقبوله والتزامه بما يرد عليه، فإن هو صدق: فعل الواجبات وترك المحرمات فقد أتى بالإيمان الواجب المقتضي لدخول الجنة، فإن هو ضمّ إلى ذلك فعل المستحبات وترك المكروهات فقد أتى بالإيمان الكامل.

طيب، إذا أردنا أن ننزل البوستتين في الآية على هذه الدوائر، يقول الله تعالى: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ}[فاطر:٣٢]** من هذا الظالم لنفسه؟ الذي في الدائرة الداخلية، لأنه لم يأت بشرط الدائرة الوسطى، لماذا؟ لأنه ظالم لنفسه: إما بترك واجب أو فعل محرم، فهذا عنده أصل الإيمان، طيب، **{وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ}** من المقتصد؟ صاحب الإيمان الواجب، قال: لا، حدي، حدي إني أفعل الواجبات وأترك

المحرمات. طيب، كتر خيرك، كما نقول، يعني أنت الآن قد أتيت بالإيمان الواجب فأبشر بالجنة، **{وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ}** ما شاء الله، هذا السابق بالخيرات هو الذي في الدائرة الواسعة الكبرى، هكذا يتصور أهل السنة والجماعة الإيمان.

أما الشيخ –رحمه الله– فماذا يقول؟ والإيمان واحد: ما فيه، ما فيه تمايز، ما فيه طبقات في الإيمان، ما فيه تفاضل بين المؤمنين.

وأهله في أصله سواء: لأنه ما فيه إلا إيمان، إما أن يوجد أو لا يوجد، مثل أن يكون هُوية وطنية، أن تكون سعودي أو مصري أو يمني أو غير ذلك، إما أن تكون معك أو لا تكون، انتهى الأمر، هكذا يكون معك هذه البطاقة أو ليست معك، انتهى الأمر، فحينما تملك مثلاً بطاقة وطنية ما فيه يعني رتب فيها، هي بطاقة لكل الناس سواسية.

والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأَولى: الواقع أن هذا من الشيخ –رحمه الله– إقرار بالتفاضل، أهل السنة والجماعة يجعلون الخشية والتقى وملازمة الأولى من خصال الإيمان، والشيخ –رحمه الله– بناء على أنه لا يجعل العمل داخلاً في مسمى الإيمان يجعلها لا تؤثر في أصل الإيمان وحقيقته.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.